

## خزانة الوثائق

# قراءة نقدية في مخطوطة «الروض الأنيق في وصول الطالبين إلى مقام التحقيق»

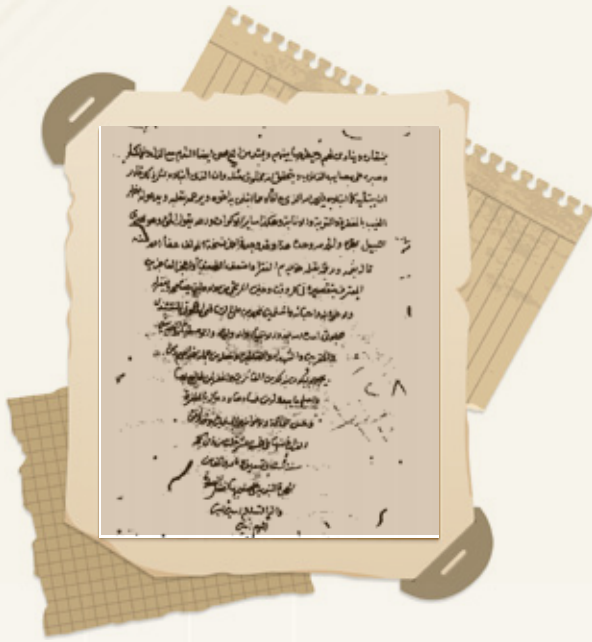
لجنة بحوث مجلة مدارك

تقدّم مخطوطة «الروض الأنيق في وصول الطالبين إلى مقام التحقيق» نصًا صوفيًا تعليميًا يروم رسم «خارطة سير» للمريد، وضبط العلاقة بين الشريعة والطريقة والحقيقة، ثم تنزيل ذلك على برنامج عملي يشتمل على الذكر وآدابه، ومراتب النفس، وأدب المريد مع الشيخ. وتبرز قيمة هذا النص وثائقيًا من جهتين: الأولى: أنه يكشف عن منطق التربية الصوفية كما يُصاغ داخل الطريقة، حيث تتحوّل المصطلحات إلى «قواعد سلوك».

والثانية: أنه يبيّن مواضع الالتباس العقدي والمنهجي التي قد تتولّد حين تُستعمل ألفاظ الشريعة بمدلولات خاصة، أو حين تُجعل «التجربة» مصدرًا للتلقي.

### أولاً: تعريف بالمصنّف والنسخة محلّ القراءة

يثبت من صدر الوثيقة أن الرسالة من تأليف الشيخ محمد بن عمود بن علي الداموسي الصوفي (نقشبندي)، ويذكر المحقق أنه كان حيًّا إلى سنة 1208هـ، مع إيراد أمثلة من مصنفاته ومصادر ترجمته (ص 11). كما يورد المحقق وصفًا فنيًا للنسخة الخطية التي اعتمدها: كونها محفوظة بالمكتبة الأزهرية، وعدد أوراقها، ونظام الأسطر، وبعض خصائص الكتابة والعناوين (ص 12). وهذه البيانات تُفيد في تثبيت هوية النص، وتحديد حدوده، وتنبية الباحث إلى أن القراءة هنا قراءة «وثيقة» لا «منقول شفهي».



## ثانيًا: ملخص بنية الكتاب ومقاصده

يمكن تلخيص البناء الداخلي للرسالة (ضمن الصفحات 9-84) في المحاور الآتية:

### تقرير الثلاثية: الشريعة-الطريقة-الحقيقة

يقرر المؤلف أن الأقوال تُنسب إلى الشريعة، والأفعال إلى الطريقة، والأحوال إلى الحقيقة (ص 16)، ثم يبالغ في تأكيد تلازمها من خلال تشبيه «البيضة» حيث يجعل الشريعة قشرًا، والطريقة لبًا أبيض، والحقيقة لبًا أصفر، مع تأكيد أن الثلاثة «شيء واحد» في الأصل (ص 17). هذا التلازم - في ذاته - قد يفهم فهمًا صحيحًا إذا أُريد به أن الشريعة أصل، وأن التزكية ثمرة لها، غير أن صورة «القشر واللُب» قد تُورث عند بعض القراء نزعة الاستخفاف بالظاهر الشرعي، أو توهم أن الحقيقة مقام مستقل.

### مركزية الشيخ والانتساب والطريقة

يتكرر في الرسالة أن نجاح السالك يتوقف على «شيخ كامل» يعرف دقائق الطريق، ويميّز بين خواطر النفس والشيطان، ويعرف «تجليات» متنوعة (ص 30). ثم يتوسع النص في «كيفية الذكر» وضرورة أن يكون الذكر باسمٍ يتلقاه المريِد من الأستاذ، مع تصوير الأستاذ نائبًا وواسطةً في التلقي الروحي (ص 35).

### تفصيل مراتب النفس وبرنامج الذكر

يفتح المؤلف فصلًا في النفس الأُمارة ويذكر برنامجًا عمليًا للذكر بـ (لا إله إلا الله) على هيئة مخصوصة تشمل استقبال القبلة، وخفض الرأس ورفع مع تحريك للجسد، بل وضرب على موضع القلب، ويضيف إلى ذلك استحضار صورة الشيخ واعتقاد الاستمداد منه (ص 40). ثم يمتد الكلام إلى معانٍ «ذوقية» ترتبط بالنور والمشاهدة والفناء والبقاء (ص 50).

### مقاطع أخلاقية وتربوية

في النص مواضع وعظية نافعة في الإخلاص وترك الرياء والتسوية والوفاء بالعهد (نحو ص 45، 70)، وهي مما يشهد بأن الرسالة لا تُقصد بها الانحراف ابتداءً، لكن الإشكال في «مفاصل محددة» تتعلق بالمصدر المعرفي والوسائط والهيئات التعبدية.

## أدب المريـد مع الشيخ

يُفرد المؤلف مساحة كبيرة لآداب صارمة للمريد مع الشيخ: كخفض البصر وعدم النظر إلى وجه الشيخ، وعدم سؤاله، وعدم طلب دعائه، والتقليل من السلام عليه، وعدم الانتقال إلى شيخ آخر... إلى غير ذلك من القيود (ص 80). وهذا باب يقتضي تمييز الأدب المشروع عن الغلو المفضي إلى التعلق.

## ثالثاً: أبرز الشبهات الصوفية الواردة في النص

## 1) شبهة «الواسطة» في التلقي الروحي ونيابة الشيخ

جاء في الرسالة أن الأستاذ «نائب» وأنه «واسطة» بين المريـد وبين الله (ص 35)، وتظهر هذه الفكرة كذلك في ربط الاستمداد بالشيخ بوصفه نائباً عن صاحب الرسالة (النبي ﷺ) (ص 40).

## التحرير والرد:

النيابة الشرعية الثابتة إنما هي نيابة العلم والبلاغ: العلماء يرثون علم الأنبياء بتعليم النصوص وبيانها، لا بتلقي الإذن الغيبي ولا بكونهم وسائط في القرب من الله.

جعل الشيخ «واسطةً» يُخشى منه فتح باين: باب التعلق القلبي بالمخلوق، وباب تقديس التجربة بحيث تصبح أوامر الشيخ معياراً فوق الدليل. والعبادة—بخاصة باب الدعاء والاستمداد—حق لله وحده، ولا يُصرف منه شيء لمخلوق بحجة النيابة أو الوساطة.

## 2) شبهة الاستمداد بالشيخ واستحضار صورته في الذكر

ينص المؤلف على أن المريـد يستمد «من شيخه» باستحضار صورته، ويجعل ذلك جزءاً من كيفية الذكر (ص 40).

## التحرير والرد:

الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق جائزة، أما «الاستمداد» بوصفه مددًا غيبيًا وتصرّفًا في القلوب والأحوال فهو باب شديد الاشتباه، ويؤول غالبًا إلى صور من الغلو، وقد يصل إلى معنى الاستغاثة بغير الله.

عبادة الذكر مبناهما التوقيف، وإقحام «استحضار الصورة» كجزء لازم من العبادة يفتح باب التعلق، ويؤسس لتدوين قائم على الوسائط لا على الإخلاص المباشر لله تعالى.

### 3) شبهة «هيئات الذكر» المخترعة وربطها بمقامات مخصوصة

يذكر النص هيئة تفصيلية للذكر تشمل تحريك الرأس والجسد وضرب الصدر عند موضع القلب، وجعل ذلك برنامجًا للمريد (ص 40). كما يذكر ذكرًا باسم معين مثل «القيوم» مع هيئة مخصوصة (ص 60).

#### التحريير والرد:

الأصل في العبادات التوقيف، والذكر الوارد عن النبي ﷺ وصحابته لم يثبت فيه هذا النمط من الحركات المنتظمة والضرب بوصفه هيئة لازمة للذكر.

إن التوسع في «الهيئات» يفضي إلى جعل الدين طقوسًا محدثة تُقَيّد بها القلوب أكثر مما تُزكّي بها، ويُلبّس على العامة بأن التزكية لا تحصل إلا بهذه الطرق.

### 4) شبهة الفناء وتفسير الحديث القدسي على وجه يفتح باب الحلول والاتحاد

من أخطر المواضيع ما ورد عند الكلام على الذكر بـ«القيوم» وما يترتب عليه من شهود يجعل العوالم «قائمة بغير الله»، ثم الانتقال إلى عبارات من قبيل «فناء الشهود» و«الفناء الفناء»، وربط ذلك بالحديث القدسي «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...» على وجه يوهم أن وجود العبد يذوب في وجود آخر (ص 60).

#### التحريير والرد:

الحديث القدسي صحيح المعنى عند أهل السنة إذا فهم على أنه توفيق وتسديد: أي أن الله يوفق عبده في سمعه وبصره وجوارحه فلا يستعملها إلا فيما يرضيه، لا أنه اتحاد أو حلول.

أما حمله على معنى «المحو الوجودي» أو أن العبد يصير هو «الوجود» أو يُحيط بالوجود، فهذا من أخطر الانحرافات، لأنه يصادم أصل التوحيد القائم على مباينة الخالق للمخلوق، وأن الله تعالى ليس كمثله شيء.

5) شبهة الغلو في آداب المرید مع الشيخ وإلغاء الحقوق الشرعية تُساق في الرسالة آدابٌ بالغة التشدد مع الشيخ: لا ينظر، لا يكثر السؤال، لا يطلب الدعاء، يقلّ السلام، لا ينتقل إلى غيره... (ص 80).

#### التحرير والرد:

الأدب مع أهل العلم والصلاح مطلوب، لكن الأدب المشروع لا يلغي حقّ المسلم في السؤال والتعلم، ولا يعطل مبدأ النصيحة، ولا يُحوّل الشيخ إلى "مهابةٍ مقدّسة" تُمنع معها المراجعة أو الاستفسار. كما أن "عدم الانتقال" مطلقاً قد يتحول إلى نوع من الولاء الطُرقي الذي يجعل الدين مرتبّطاً بأشخاص لا بأدلة.

#### رابعاً: ما الذي يمكن الإفادة منه في الرسالة؟

مع الملاحظات السابقة، في النص جوانب تربوية نافعة إذا ضُبّطت:

- التنبيه على الإخلاص وقطع الالتفات إلى المخلوق (نحو ص 45).
- التحذير من التسويف ونقض العهود (نحو ص 70).
- ربط التزكية بمجاهدة النفس وترك الصفات المذمومة (ظاهر في مباحث النفس).

غير أن الإفادة العلمية الرشيدة تقتضي قراءة "محصنة": يُؤخذ منها ما وافق أصول الشرع، ويُردّ ما خالفها، ويُكشف ما كان من المصطلحات موهماً أو محتجباً لمعنى فاسد.

#### خاتمة

تكشف هذه المخطوطة عن نموذج تعليم صوفي يخلط بين الصحيح والملتبس: صحيحٌ في مقاصد الوعظ ومجاهدة النفس، وملتبسٌ حين يجعل للشيخ وظيفة "وساطة"، أو يربط العبادة بهيئات مخصوصة، أو يطلق عبارات الفناء بما يجزّ إلى اضطراب في باب التوحيد. ومفتاح السلامة المنهجية أن يُردّ كل ذلك إلى الميزان الجامع: اتباع الوحي، وإفراد الله بالدعاء والاستعانة القلبية، وحمل نصوص الشرع على معانيها المستقيمة، ورفض كل معنى يفضي إلى الغلو أو التعلق بالمخلوق.

#### المصادر:

- سعيد عبد الفتاح (جمع وتحقيق)، رسائل صوفية مخطوطة: «الروض الأنيق في وصول الطالبين إلى مقام التحقيق» (ص 9-84 من الملف).
- ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
- الشاطبي، الاعتصام.
- ابن القيم، مدارج السالكين.